كرستينا ملكة السويد

١٦٢٦ — ١٦٨٦

للدكتور محمد عوض محمد

هذه الصورة — التي عرضتها أمام أهل القاهرة إحدى ممثلات السينما ؛ في شيء كثير من الاسراف الذي يعشقه رواد الملاهي ، وفي شيء كثير من الانحراف عن حقيقة التاريخ التي قلما يعبأ بها أصحاب القصص ، ومؤلفو المسرحيات — هي من تلك الصور التي تتجاوز في حقيقتها وفي طبيعتها مذاهب الوهم ومسابح الخيال . وحسب كل انسان أن تعرض أمامه تلك الصورة كما كانت لا كما يتوهمها القصصيون .

ليس لكرستينا مكان بين كبار الملوك ، ولكن لها شخصية قوية غريبة تستفز لتصويرها كل من يهوى الشيء النافر الغريب الشاذ .

ولدت في أول الربع الثاني من القرن السابع عشر ، وكان مولدها في شهر كانون الأول : في عنفوان الشتاء القارس ، حين يصبح الهواء زمهريرا والماء جمدا . ويوشك الدم أن يتجمد في عروق الناس والحيوان . . . وكان حقيقا بمن يولد في هذا الشهر أن يكون في طبعه تؤدة وبرود ، ورزانة وهدوء . . . غير أن ابنة جوستاف أدولف ، ما كانت تعرف الهدوء ولا البرود . بل كانت كتلة من الشرر التطاير واللهيب المندلع .

وسيظن الناس أننا نعبث حين ندعي أن لشهر كانون تأثيرا فيمن يولدون فيه . ولنسلم لهم أن في هذا الزعم ما فيه من عبث ، وأن شهر المولد أبعد الأشياء من أن يؤثر فيمن يولد فيه . ولكن ، بعد التسليم بهذا ، أنستطيع أن ننكر ما للبيئة من تأثير لا يحد ، وقضاء لا يرد ، وأفعال لا تعد ؟ كيف والبيئة هي الركن الركين في فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء ؟

ولقد ولدت كرستينا تحت سماء اسكندناوية مكفهرة تغشاها السحب ، وتكتنفها الغيوم ، في بلاد تجمد أنهارها في الشتاء ، فلا تجرى فيها قطرة ماء ، وتجمد البحار فلا تستطيع السفن حراكا ؛ ويتساقط الثلج ، ويتراكم أكداسا فوق أكداس ، فلا ترى العين حيثما نظرت سوى هذه الكتل البيضاء ، تكسو الشجر والحجر ، والحقول والدور . . . ويبرد الهواء حتى ليكاد النفس أن يجمد حين يغادر الشفتين ، ويعجز النبات عن النمو ، فيبقى في الثرى هامدا جامدا ، ينتظر ربيعا لا يجيء الا أخيرا ، وصيفا لا يدوم الا زمنا يسيرا . أما الخريف فما له هنالك من مآرب سوى أن يمهد للشتاء السبيل ؛ وكثيرا ما يندمج فيه ، ويصبح ويمسي جزءا منه

وكان خليقا بمن يولد في هذه البيئة — اذا كان هنالك معنى لما يقوله أصحاب مذهب البيئة — أن يكون هادىء الطبع ، لا يصدر في أعماله الا عن تؤدة وتروٍ ، بعيدا عن طيش أهل الشرق وزخرفهم الذي اكتسبوه من حرارة هوائهم ، كثير التبصر في العواقب ، والادخار للمستقبل المظلم كظلام الشتاء ؛ مولعا بالعدل بعيدا عن الاستبداد والظلم اللذين هما من خصائص الشرقيين ، أهل البلاد الحارة ، لأن العدل نتيجة الروية والأناة وقلة الاندفاع ، وهذا كله من المزايا التي يمنحها الله لعباده الذين يعيشون في بيئة باردة

وكأنما أرادت كرستينا أن تقلب هذه السنن جميعا فتجعل عاليها سافلها ؛ فاذا هي وسط هذا الجليد والزمهرير شعلة من نار لا تخبو ، ولهيب متقد لا يهدأ ، واذا في طبعها اندفاع وعنف ، واذا هي شديدة القلق ، بعيدة عن الهدوء والاستقرار . . . مسرفة مبذرة تبذيرا أفقر الدولة ، جائرة في الحكم حتى لقد مالت الى النبلاء ميلا شديداً ، ومنحتهم موارد الدولة وغمرتهم بالهبات . . شديدة الغرور حتى لقد كانت تضع التاج تحت قدميها ، وتزعم أنها تفخر إذ تطأ برجلها ما يجلل هام الملوك ، وقد نسيت أن من حمل ذلك التاج أبوها العظيم جوستاف أودلف . . . وعلى حدة ذكائها النادر لم تستطع أن تفهم أنها مهما عظمت فانما عظمتها الحقيقية في عظمة بلادها . . . فكانت لا تعنى الا بأبهة الملك ، وبمظاهر العظمة دون حقيقتها ، ومن أجل أبهة الملك أرسلت في طلب ديكارت المسكين ، وألحت عليه في أن يقيم بقصرها في استكهولم لكي يدارسها العلم والفلسفة . فجاء الفيلسوف العظيم وقضى نحبه بعد ثلاث بين قصورها في بلاد لا يلائمه هواؤها ولا جوها

وكانت متكبرة أشد الكبرياء ، غيورة لا تطيق أن يعرف لأحد فضل ، أو يشتهر له بين الرعية ذكر ، حتى لقد أساءت إلى الوزير القدير اكسنستيرنا ، الذي لم يكن في البلاد بل في أوروبا كلها أقدر منه . . . وكانت جامحة في شهواتها أشد الجموح ، منغمسة في اللذات انغماسا يزري بالمتوحشين من أهل أفريقية ، ومع ذلك

فما هي من أهل الشرق ولا من أهل افريقية ، بل من ذلك الجنس الشمالي التيوتوني الذي اشتهر بالاعتدال وبرود الطبع ، كما اشتهر بالشعر الاشقر والعيون الزرقاء . . . فكأنما أرادت كرستينا أن تصفع أصحاب مذهب البيئة باليمين ، وأصحاب مذهب الوراثة بالشمال .

لكن البيئة والوراثة ليستا بالشيئين الوحيدين ، اللذين خرجت عليهما كرستينا وطعنتهما في الصميم ؛ بل لقد خرجت أيضا على المؤدبين ونظرياتهم وعقائدهم . . اختاروا لتعليمها وتأديبها رجلا من كبار المؤدبين . فلقد توفي أبوها جستاف أدولف في حومة الوغى ، بين قعقعة السلاح وهزيم المدافع ، في حرب الثلاثين عاما ، ولم تكد الفتاة أن تبلغ السادسة من عمرها

ولم يكن للعرش وارث سواها فحاول المؤدبون أن ينموا فيها طباع الملوك وأخلاق الرجال ، فاذا هي لا تعرف سوى أهواء النساء وميول النساء . واذا فيها كل ما في طبع المرأة المسرفة من تعسف وتسرع ، وعناد كعناد الاطفال ، وتطرف ، ومتابعة للشهوات ، وأرادوا منها أن تناصر المذهب البروتستنتي ، الذي مات أبوها في الدفاع عنه ، والذي بلغت السويد ما بلغته من العظمة بالذود عن حوضه فاذا كرستينا لاتعبأ بالدين البروتستنتي ، ولا يهمها أن تمضي البلاد في تلك الحروب الدينية ، بل لقد انتهى بها الأمر الى نبذ البروتستنتية تماما والميل إلى الدين الكاثوليكي . ولم تكد تبرح البلاد بعد اعتزال الملك حتى اعتنقت الكثلكة وتركت البروتستنتية غير آسفة عليها ، وغير مكترثة لذلك التراث الديني المجيد الذي ورثته . بل لعل السبب أو بعض السبب الذي دفعها الى اعتزال الملك حب ذلك الدين الكاثوليكي الذي أشربت بغضه وعداوته منذ الطفولة

وبذل المؤدبون كل جهودهم لكي يلقنوها منذ طفولتها كيف تسوس البلاد . وكيف تضطلع باعباء الملك . وكيف تملأ العرش المجيد كما كان يملؤه أبوها . وأن تكون العناية بشئون الدولة . صغيرها وجليلها ، همها الوحيد الذي لا يصرفها عنه شيء

لكنها لم تكد تكبر وتتولى الحكم ، حتى كانت شديدة التبرم بالدولة وبأعمال الدولة ، وبالحكم وما يفرضه عليها من أثقال وأعباء ، ومن عناية بأمور تافهة : مستهمة مملة : وهي التي تريد أن تنصرف الى لذات الجسد بالانغماس في الشهوات ، والى لذات العقل بالتحدث الى الفلاسفة ، فكانت تتهرب من الاضطلاع بذلك العبء البغيض ، وتفر منه ما استطاعت الى الفرار سبيلا . . وذلك في زمن مقاليد الأمور فيه كلها بيد الجالس على العرش ، فكان هذا الفرار داعيا الى إهمال شئون الدولة ونقضا لمصلحة البلاد .

ومع ذلك فقد كانت كرستينا تحسب نفسها عظيمة ، بالغة أقصى حدود العظمة ، حتى لقد قالت وهي تناجي ربها : « الهي لقد جعلتني من العظمة بحيث لو أحرزت ملك الارض جميعا ما رضيت به ! » .

ورأت من العظمة ان يحيط بها جيش عرمرم من اولئك الناس الذين يدعون النبلاء ، وهم طائفة ممن لا غناء فيهم ، يعيشون عيش الحشرات الطفيلية ، بما تدره عليهم الدولة من مال لم يكدحوا لجمعه واكتسابه . وكان يلذ لها ان يحدقوا بها ليمطروها ما شاءت من رياء العبودية ، وثناء التزلف . . وأعجبها منهم هذا كله ، فجعلت تزيد في عددهم وتخلق منهم قبيلا بعد قبيل ، حتى باتوا اضعف ما كانوا في عهد أبيها ، وكان لابد لهم أن يعيشوا عيشة البذخ والترف ، فجعلت تمنحهم الأراضي والضياع باسراف وتبذير منقطع النظير ، حتى استنفدت ثروة الدولة في أشباع هذه الحشرات النهمة ، وأسلمت بلادها الى الافلاس .

وكان من العظمة أن تشجع العلم والتعليم ، وجنت البلاد من هذا بعض الخير ، لكنها غلت ، فأرادت أن يكون بلاطها مأوى العظماء من رجال الفلسفة والعلم . فكانت تنفق من أجل هذا المأرب ، انفاقا مسرفا لكي يقال انها حارسة العلم وصديقة العلماء ، وأعجبها أن يقصدها السفراء من أقاصي الممالك ، وأن يكيلوا لها المدح والاطراء ، ولم تلبث أن باتت لهؤلاء الغرباء من النفوذ عليها ما ليس لاحد من وزرائها وبني وطنها . وبينما هي تسمح لهؤلاء أن يستميلوها الى المذهب الكاثوليكي ، ويخرجوها عن دين آبائها ، اذا هي تنفر من مستشار الدولة الأمين ووزيرها المخلص أكسل أكسنسترنا Axel Oxenstierna لانه محبب الى الناس ، ولأن الشعب يرى فيه خادمه المخلص ، المتفاني في خدمته .

كانت كرستينا بلاشك ، من أولئك الملوك الذين لا يستطيعون أن يفهموا أن عظمتهم لا قيمة لها الا اذا استمدوها من عظمة أمتهم ، وأنهم لن يعلو لهم شأن إلا اذا علا شأن دولتهم . فما كان بمجديها أن تكون عظيمة وأمتها حقيرة ، غنية وأمتها فقيرة . ذات صولة وقوة ، وأمتها لاحول لها ولا قوة . فما لبثت أن أفنت موارد البلاد ، واستنفدت خزائن دولة كانت تعد في طليعة دول ذلك الزمن . .

وأراد المخلصون من رجال الدولة أن تتزوج ملكتهم ، لكي يضمنوا لعرش الدولة وريثا يجري في عروقه دم أسرة فازا Vasa

البقية على صفحة ٦٠٠ .